**التغير الاجتماعي**

**الدرس 4**

**نظريات التغير الاجتماعي**

**1/ النظريات الخطية للتغير**

التوصيف هذا للنظريات التي سنتطرق إليها حول التغير الاجتماعي، هو توصيف حديث وليد القرن التاسع عشر بعد انتقال الاهتمام بالتغير الاجتماعي من الجانب الفلسفي إلى الفلسفة الاجتماعية خاصة خلال وبعد عهد الأنوار.

فقط كملاحظة ينبغي التنبيه إليها، أن هذا التوصيف لمختلف النظريات حول التغير هو نتاج معرفي نقدي لمختلف التيترات والمدردس والآراء حول التغير. غير أن هذا لا يمكن أن نفرضه كما هو مفهوم حاليا على هذه النظريات كما كان أصحابها يفكرون بها، بمعنى أنه ليس بالضرورة أن يكون الدارسون للتاريخ والفلسفة ينظرون إلى التغير بطريقة خطية متواصلة ممتدة في التقدم، لا ينكفئ ولا تتجدد ولا تتكرر. فهذا من تحصيل الحاصل أن نلاحظ الدورة الكونية تتجدد كل سنة عبر الفصول وعبر السنوات وأيضا عبر الشهور، من خيار تعاقب الأيام والليالي. لهذا، نجد حتى في النصوص الدينية المقدسة ومنها القرآن يتحدث عن التغير والدوران والتكوير والتسبيح (من السباحة)، التي تعني كلها التغير الخطي لكن في دوران دائم. لهذا لا يعني أن النظرية الخطية في التغير والتي عادة ما تربط بالنظرية الدين للخلق والنشور والتطور التي تبدأ بنشأة الخليقة وتنتهي بانتهاء هذه الخليقة. هذا تطور خطي، لكن هذا لا يعني أن الخط مستقيما دوما لا مائلا ولا دائريا ولا حلزونيا ولا لولوبيا، إنما هي تسمية ميز بها المحدثون تطور النظريات نفسها من حيث النظرة والفهم لا من حيث كونها تلغي التطور الدائري أو اللولبي.

النظريات الخطية نعني بها إذن النظريات القديمة في التغير الاجتماعي وتطور التاريخ الإنساني، وهي كثيرة وكثيرا ما تتداخل النظريات الخطية مع بقية النظريات الأخرى.

ـ نجد في نظرية "Antoine Condercet"[[1]](#footnote-2) (1743 . 1794)، ذلك المنحنى الخطي التطوري للحضارات، رغم أن نظريته تتضمن عناصر من الحركة الدائرية لطن دون أن يشير إلى ذلك بصريح العبارة، كون التسمية هي محصلة تراكم معرفي نقدي لما مر من المقاربات النظريات والرؤى تجاه التطور والتغير. عندما يتحدث عن المراحل العشرة التي مرت بها الحضارة الإنسانية وهي: الطبيعة، الرعي، الزراعة.. هذه المراحل الثلاثة الأولى هي نفسها التي تتحدث عنها نظريات أخرى بتسميات مختلفة لكنها تجمع على نفس مراحل التطور والتي دامت ألاف السنين.(على سبيل الذكر، مرحلة المشاعية البدائية في النظرية الماركسية مع كل مراحلها الجنينية والتطورية، بدء من القطيع البشري والجني واكتشاف النار والملح والتدجين فالرعي فالزراعة البدائية)، ثم تليها بحسب Antoine Condercet، الحضارة اليونانية، ثم الحضارة الرومانية، (وهنا أيضا يتلاقى مع "ماركس" و"إنجلز" في المرحلة الثانية عندهما ضمن المادية التاريخية وهي "المرحلة العبودية"، غير أن "أنطوان كندرسيت"، لا يذكر الحضارة المصرية حضارة ما بين النهرين، ويبدو أنه يتناول فقط تاريخ أوروبا كما فعل ماركس وغيره)..يضاف إلى ذلك ضمن المراحل العشرة التي ذكرها: مرحلة العصور الوسطى، ثم الإقطاع (ماركس، يضمهما لنفس المرحلة "المرحلة الإقطاعية"، مع العلم أن كل مرحلة تتضمن مراحل داخلية، فالعصور الوسطى هي أقطاعية بدائية أو مرحلة انتقالية من النظام العبودي إلى الإقطاعي)..المرحلة الثامنة عند "كوندرست" يحددها بفترة ما بعد "اكتشاف الطباعة"، أي القرن ال16، أما المرحلة التي تليها، فيربطها "بالثورة الفرنسية"،(هاتان المرحلتان يجمعهما "كارل ماركس" في مرحلة "الرأسمالية"، والتي بدأت مع ثورة برجوازية المدن لأكنها ستتطور لتصبح حسبه "إمبريالية" والتي هي "أعلى مراحل الرأسمالية" بحسب تعبير ماركس. أما المرحلة العاشرة والأخيرة في نظرية "أنطوان كندرست"، فيسميها "مرحلة الآمال ومستقبل الإنسانية".

نلاحظ أن التطور عنده يبدو خطيا، لكن ليس مطلقا، فهو لم يتحدث عن نظريته على أنها خطية أو غيرها، إنما ذكر التعاقب الحضاري في أوروبا، دون أن يبحث عن التسميات والنعوت لنظريته، فكل ما كلن يهم هو مدى تاريخيتها وحقائقها العلمية والتاريخية، وهذا كان من مهام المتأخرين من الدارسين والنقاد.

ـ عند [[2]](#footnote-3)August Conte (1757.1779)، نجده، وهو الفيسلوف "الوضعي" (Positiviste)، يقسم مراحل التطور التاريخي، استنادا دائما لتطور المجتمع الأوربي، بشكل يبدو هو الآخر خطيا، لكن أكثر تجريديا. فهو صاحب نظرية "الديناميكية الاجتماعية" المقابلة "للستاتيكا"(Statique) أو الثبات الاجتماعي. فالتغير عنده قانون دائم وهو يتحكم ويحدد طبيعة التطور انطلاقا من عامل الزمن والمكان.

يقسم "أوغست كونت" التاريخ الحضاري لأوروبا (ومنه كل الإنسانية.. مع العلم أن هذه المراحل، بما في ذلك المراحل العشرة عند "كندرست"، لا تتفق مع كل الحضارات الإنسانية والمراحل التي عرفتها هذه الحضارات، لأنها تختلف باختلاف المكان رغم أن عام الزمن واحد.

يمسي "أوغست كونت" هذه المراحل "حالات" وهي:

. الحالة اللاهوتية الدينية، ويحددها بنحو ما قبل 1300 سنة ق.م. ويقصد بها نفس المراحل التي ذكرها "أنطوان كندرست": الطبيعة، الرعي، الزراعة، أي المرحلة التي سبقت مرحلة العبودية عند ماركس. غير أن "أوغست كونت"، يطبع هذه المرحلة بمسحة فكرية وليس اقتصادية اجتماعية، يحكم عليها بناء على ما يسميه كارل ماركس بالبنية الفوقية، حيث كان الفكر اللاهوتي هو السمة البارزة للبنية الفوقية خلال هذه المرحلة، لهذا سماها "حالة".

. الحالة الثانية عنده يسميها "الحالة الميتافيزيقية". ورغم أن اللاهوتية والميتافيزيقية متقاربتان ومتقاطعتان من حيث الدلالة والمعنى، إلا أن "أوغست كونت" هنا، يشير بالأساس إلى مرحلة "الفلسفة" ولكن أيضا مرحلة "الأسطورة"، ويقصد بها "مرحلة الحضارة اليونانية، والرومانية وإلى غاية عصر الأنوار، حيث كانت الفلسفة المثالية الكلاسيكية هي المسيطرة فكريا ورؤية للعالم والظواهر والأشياء، أي قبل أن تظهر الفلسفات الاجتماعية مع عصر الأنوار.(من 1300 ق . م إلى 1800 م)

يمكن هنا أن نشير إلى أن الحالة الأولى عن كونت، والتي هي اللاهوتية، يشير من خلالها إلى كل الأشكال المجتمعات التي سبقت الوثنية الإغريقية وتعدد الآلهة، ونقصد بذلك كل أشكال المعتقدات والعبادات والطقوس الطينية البدائية: طوطمية بالأساس.

. الحالة الثالثة عند "أوغست كونت"، يسميها ب" الحالة العلمية"، ويؤرخ لها منذ 1800م، ويربطها بثورة الرأسمالية البرجوازية وظهر المجتمع الصناعي والاكتشافات العلمية والاختراعات ودخول الفلسفة مجال "العلم" والواقع، بعدما كان مجالها ميتافيزيقي بالأساس.

هؤلاء، مجرد نماذج، يمكن إضافة إليهم توجهات نظرية تصب في نفس التصور والرؤي.

نجد ذلك أيضا حاضرا لدى Edward Taylor، ضمن التصور الديني حيث يرى في التطور التاريخي للإنسانية في شكل تغير مضطرد مظهره ديني فكري، حيث انتقل الإنسان حضاريا من مرحلة المعتقات الروحية "Animisme" إلى مرحلة تعدد الآلهة "Polithéisme" وصولا إلى مرحلة "التوحيد" Monothéisme"، موضحا بذلك الخطية التي انتهجها الفكر الإنساني عبر آلاف السنوات.

التطور العلمي، كان له الفضل في تحديد المصطلحات والمفاهيم وتدقيقها ومنها مقولة "التطور الخطي" و"التطور الدائري" و" الحلزوني/اللولبي"، فقد بات يعرف الآن، أنه لا يوجد هناك خط مستقيم بالمطلق، وإنما هناك التواء ومنحنيات ودوران في الخط الذي يبدو مستقيما. تأكد ذلك بدء من اكتشاف أن الأرض كروية وغير مسطحة، بمعنى أنها ليست منبسطة في شكل خط أفقي لا منتهي وإنما له نهاية يبدأ فيها بالميلان. نفس الشيء مع اكتشاف "القذائف"، حيث أكتشف أنها لا تنقل بالسرعة التي تنطلق منها من فوهة البندقة أو المدفع ثم بعدها الصواريخ، في خط مستقيم، رغم ما يبدو للعين أحيانا، لأن المقذوف بمجرد أن ينتهي مداه، يشرع في الميلان ثم السقوط محاولا تشكل دائرة كبيرة القطر. مواسير المدافع اليوم ملولبة من الداخل لتسريع المقذوف أكثر كون القذيفة وهي تنتقل من مكان إلى مكان، إنما تنتقل سابحة، دائرة حول نفسها، وليس في خط مستقيم.

من هذا المنطق، فإن كل حركة تبدو مستقيمة أفقية هي في الأصل دورانية، cyclique.

وعلى الرغم من تقاطع هذه النظريات وتقاربها إلا أنهما من حيث التأريخ والفهم للتاريخ، فإن النظرية الخطية أقدم نسبيا، تلتها النظريات الدائرية، فيما تمثل النظرية اللولبية هي النظرية الأكثر حداثة، يدخل ضمن هذا التصنيف الثلاثي كثير من النظريات التي لا ينبغي أن نخلط بين "مناهجها" وتصنيفها: لا يمكن مثلا الربط بين النظرية البنيوية الوظيفية هي خطية أو دائرية أو لولبية. هذه مناهج ومقاربات تتوزع على التصنيف الثلاثي السابق. فهذه التصنيفات تمثل "توجهات" و"نزعات" و"ميولات" فكرية أكثر ما هي مناهج وطرق بحث.

" Jiambattista Vico"[[3]](#footnote-4)، رغم أنه يتحدث عن بدية ونهاية كل مرحلة ومن المراحل الثلاث وكأنها تمثل دورة حياة تنتهي بانتهاء آجالها الزمني في تطور زمني دائري، إلا أن التطور عنده يبدو خطيا أفقيا أو عموديا تصاعديا.

المراحل الثلاث التي مر المجتمع الأوربي، ومنه المجتمع الإنساني في تصوره، تتمثل فيما سماها ب:

. المرحلة الدينية (والتي نلاحظها في مختلف النظريات السابقة على مختلف التسميات والتحديات الزمنية، تتمثل في المرحلة التي سبقت الحضارة اليونانية). فهي مرحلة انتهت دورتها الزمنية وانقضت وحل محلها دور دورة ثانية هي:

. "مرحلة البطولة"، هكذا يسميها فيكو، ويشير بذلك إلى المرحلة التي بدأت من العهد الأسطوري الإغريقي ، فالعهد الروماني وانتهاء بالإقطاعية. خلال هذه الفترة الطويلة، كانت البطولات والحروب سيدة الموقف، باعتبار الغلبة للأقوى.

. المرحلة الثالثة عند فيكو، "مرحلة الإنسانية" والتي ترتبط بنهاية عهد الإقطاع وبداء المرحلة الرأسمالية.

كل هؤلاء المفكرون، هم نتاج بداية الانتقال من المجتمع الإقطاعي نحو الثورة الصناعية والمجتمع الرأسمالي البرجوازي، لهذا كانت خاتمة الأمل عندهم هي الحرّيّة الرأسمالية التي كانت تبدو لهم "مرحلة الحلم الإنساني" ومرحلة "الحرية الفردية والجماعية" على خلفية سقوط الإقطاع الذي جسده "آدم سميث" في مقولته: "دعه يعمل، دعه يمر.

**2/ النظريات الدائرية واللولبية**

يمكن اعتبار نظرية ابن خلدون أقدم نظرية ضمن النظريات الدائرية التي تعتمد على ميلاد مرحلة أو دولة أو حقبة ثم زوالها وانقضائها بعد نهاية صلاحيتها التاريخية والزمنية. ولنا عودة في نهاية الفصل لنظرية ابن خلدون. كما سنلاحظ ذلك مع نظرية شبنجلر.

التطور أو التغير اللولبي، إشارة إلى أن التغير والتطور يكون في شكل دائرة لكن دائرة غير مغلقة تماما، بمعنى أن نقطة البداية وما يليه من خطي منحني دائري، لا يلتقي في نهاية المطاف بنقطة النهاية، بل يتجاوزها ولا يتطابق معها، بما يفيد أن الحضارة أو التاريخ "يعيد نفسه" لكن لا يطابق نفسه، فهو يتكرر بطريقة متشابهة على نحو ما دون أن يكون متطابقا وإلا لما افترضنا وجود هناك تغير أو تطور أصلا ولما سلمنا بقانون التغير وأسسنا للثبات الذي يعني "لا حراك ". L’immobilisme

تمثل النظرية الماركسية، نموذجا لما يسمى النظرية اللولبية أو الحلزونية" En spirale"، والتي سنفرد لها درسا خاصا في نهاية الفصل مع النظرية الخلدونية.

ضمن هذه التصنيفات الثلاثة لطبيعة الحركة والتطور والتغير، ستنشأ هناك نظريات تفسر وتشرح وتدرس التطور من مختلف الأوجه والمناهج والمقاربات وهذا مع نهاية العصور الوسطى في أوربا ومنها نظرية "شبنغلر"[[4]](#footnote-5) 1880ـ1936 (Oswald Arnold Gottfried Spengler) التي يتحدث فيها عن الدورة الحياتية وحتمية الفناء في نهاية العمر ، كما هو الشأن بالنسبة لكل الدورات الطبيعية والفلكية. "شبنغلر" الذي يقسم مراحل عمر الحياة الإنسانية من النشأة عبر التطور الزمني بحسب ما يسميه بالثقافات، أو الحضارات ويعد 8 مراحل بدء من: الحضارة المصرية، فحضارة ما بين النهرين، فالحضارة الهندية ثم الصينية، فالحضارة الكلاسيكية (يقصد الحضارة الإغريقية الرومانية اللاتينية) ، فالعربية المجوسية (يقصد الفارسية)، فحضارة المايا (أمريكا الجنوبية/ المكسيك)، فالحضارة الغربية الرأسمالية

يلاحظ كيف أن "شبنجلر"، باعتباره من المتأخرين، قد أخذ بعين الاعتبار في التطور التاريخي للحضارات كل الحضارات تقريبا وفي كل القارات فيما اكتفى الأوائل بالتجربة الأوربية في تشكل نظرياتهم التطورية، كما أن "شبنجلر" يبدو وكأنه يتناول كل حضارة على حدة وليست حضارة تراكمية مستمرة، وهذا ما جعل نظريته يدخلها البعض في النظرية الدائرة ذات الدورة الواحدة كأي دورة عضوية بيولوجية تبدأ وتنتهي بانتهاء دورتها الطبيعية[[5]](#footnote-6).

1. <http://classiques.uqac.ca/classiques/condorcet/esquisse_tableau_progres_hum/esquisse_intro_auteur.html> [↑](#footnote-ref-2)
2. [https://www.cairn.info/revue-interdisciplinaire-d-etudes-juridiques-2011-2-page-49.htm#](https://www.cairn.info/revue-interdisciplinaire-d-etudes-juridiques-2011-2-page-49.htm) [↑](#footnote-ref-3)
3. <https://journals.openedition.org/laboratoireitalien/382> [↑](#footnote-ref-4)
4. <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%88%D8%B3%D9%81%D8%A7%D9%84%D8%AF_%D8%B4%D8%A8%D9%8A%D9%86%D8%BA%D9%84%D8%B1> [↑](#footnote-ref-5)
5. لتوضيح أكثر يمكن الاطلاع على مقال: التفسير البيولوجي للحضارات عند أوزفالد شبنجلر د. قادة جليد

   <http://www.almothaqaf.com/qadayaama/b1d/922115-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%81%D8%B3%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D9%88%D9%84%D9%88%D8%AC%D9%8A-%D9%84%D9%84%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%B9%D9%86%D8%AF-%D8%A7%D8%B2%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AF-%D8%A7%D8%B4%D8%A8%D9%86%D8%BA%D9%84%D8%B1> [↑](#footnote-ref-6)